

تفسير سورة البقرة

اللقاء الثاني : تفسير مطلع السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله -وفق الله بعض الأخوات لتقريفها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عَلِمَ يُنْتَفَعُ بِهِ)

[/!#/http://tafaregdros.blogspot.com](http://tafaregdros.blogspot.com)

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.
- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

[/http://www.muslimat.net](http://www.muslimat.net)

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاءنا الثاني الذي نجتمع فيه على مدارسة سورة البقرة، وقد مر معنا في جلستنا الأولى طرفًا من الكلام حول فضل السورة وكون أن هذه السورة هي سنام الإسلام وفسطاط العلم، ونبدأ اليوم إن شاء الله بدراسة المقطع الأول فيها، هذا المقطع سيأخذ معنا ثلاثة إلى أربعة جلسات، وهو في الكلام حول الأصناف الثلاثة الذين ذكرناهم أمس: المؤمنين والكافرين والمنافقين.

ثم يأتينا بعد ذلك الكلام عن الصنف الرابع وهم أهل الكتاب، الآيات هي ثم نبدأ في نقاشها:

{الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)}

بدأت السورة بالحروف المقطعة {الم} وهذه الحروف مر معنا كثيرًا تذكر في أوائل السور للإشارة لأمر عدة قد اختلف أهل العلم في الكلام عنها ولأن هذا الموضع هو أول موضع في المصحف فيه الحروف المقطعة نجد في كلام المفسرين فيه إطالة وبيان للغرض من الحروف المقطعة ومن أشهر ما قيل فيها نقلهم لكلام أبو بكر-رضي الله عنه- في قوله: في كل كتاب سر وسر الله تعالى في القرآن أوائل السور.

وقيل: أن المقصود بذلك التحدي وبيان أن هذا القرآن من هذه الحروف، فإن استطاعوا وهم أهل هذه الحروف فليأتوا بسورة من مثله، وعلى هذا قال أهل العلم أن هذه الآيات التي في أوائل السور التي تتضمن الحروف المقطعة نعتقد فيها أن ليس لها معنى ولكن لها مغزى، ليس لها معنى يردون بذلك قول من قال أنها بعض أسماء الله، وقول من قال أنها أسماء للسور، وقول من قال أنها صفة من صفات الله أو أنها ثناء على الله، يردون هذا كله ويقولون أن لها مغزى، ويختلفون أيضًا في المغزى وإن كان كلامهم متشابه، فإما أن يكون المغزى التحدي كما تبين قريبًا أن أتوا بمثل هذا القرآن الذي هو من مثل هذه الحروف إن كنتم تستطيعون وقيل أن مغزاها كما ذكر عن قطرب أن مغزاها يدور حول لفت نظر الكفار لما قال بعضهم لبعض: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وتواصوا بالإعراض فكان مما يثيرهم أن يرد عليهم ما لا يعرفونه فإذا سمعوا الحروف كأنهم يقولون كالمتعجبين اسمعوا لما يجيء به محمد فإذا أصغوا هجم عليهم القرآن فكان هذا سببًا لاستماعهم، فهذه من المقاصد التي ذكرها أهل العلم، معنى ذلك أننا نعتقد أن ليس لها معنى ولها مغزى، ومغزاها كما مر الآن إما للتحدي وإما للإنصاف للفت النظر حتى يحصل منهم الإنصاف ثم قال تعالى:

{ ذَلِكَ الْكِتَابُ } وهذه الإشارة يفهم منها معاني، فذلك اسم إشارة (ذا) واللام للبعد، معنى ذلك سنفكك كلمة ذلك إلى ثلاثة أجزاء (ذا - اللام - كاف الخطاب).

ذا: اسم الإشارة. واللام: يقولون للبعد. والكاف: يقولون كاف الخطاب.

فسنسأل إلى أي شيء هنا الإشارة، ولأي شيء كانت للبعد؟

(ذلك الكتاب): إذا الإشارة إلى الكتاب، لماذا للبعد؟ لماذا لم يقال لنا هذا الكتاب؟ قيل أن اللام في الأصل وضعت للبعد في الشيء المحسوس، فإذا أردت أن تشير للبعيد ستقول ذلك، وهنا وضعت للبعد في الرتبة، إشارةً إلى ارتفاع هذا الكتاب عن الكتب، فهذا الكتاب له المنزلة العظيمة، والألف واللام في **{ الْكِتَابُ }** تدل على الكمال، بمعنى ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل، إشارةً إلى أن ما عداهم من الكتب ناقص ولا يستحق أن يسمى كتابًا، وهذا مثل ما نقول هو الرجل يعني إشارةً إلى اكتمال صفات الرجولة فيه فنقول هنا ذلك الكتاب المرتفع المنزلة هو الكتاب الكامل على الحقيقة

وإذا كان هو الكتاب الكامل يترتب على ذلك أن تُصرف الجهود وأبصار الباحثين وقلوبهم وأوقاتهم لهذا الكتاب، ويلزم من ذلك الاستغناء عن غيره من كتب العالم، مهما ارتفع منزلة أهله، إلا كتاب يبين هذا الكتاب ويوضحه ويصره، وأولى الكتب في ذلك الكتب التي تجمع سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- وبعدها يأتي ما يفصل هذا الكتاب.

معنى ذلك سنحصر الجهود في هذا الكتاب وما يبينه وما يوضحه من سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ومما يلحقه من كلام المفسرين وكلام العرب الذي يساعدنا على فهم كتاب الله.

ولما نفهم مامعنى كتاب سيزيدنا هذا اجتهادًا في معرفته، فإن الكتاب عند العرب ما جُمع، ومنه يقولون كتبت الشيء إذا جمعته وضممته بعضه إلى بعض، فهم يقولون كُتِبَ الخرز يعني أنه ماذا فعل؟ أي مضموم الخرز، فإذا كان هذا الكتاب الذي انتظم واجتمع وقد تفرق نزوله فتقرؤه منتظمًا ما تجد فيه إلا الحق وما تستطيع أن تتصور أنه نزل في ٢٣ سنة منجمًا، فهذا يزيدنا عنايةً بهذا الكتاب، وإظهارًا لشرفه.

ووصف هنا في الآية **{ الْم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ }** وهذه قراءة أن تقفي عند لا ريب، ثم تقرئين فيه هدى للمتقين. وسنشرح بهذه القراءة ويصح لك الوقف: **{ لَا رَيْبَ }** فيه **{ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ }**، ويصح الوقف **{ لَا رَيْبَ فِيهِ }**. **{ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ }**.

إذا **{ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ }** والريب مصدره رابه الأمر إذا حصل عنده ريبة، وحقيقة الريب القلق، قلق النفس واضطرابها، فلذا تجد صفة البعيدين عن الكتاب دائمًا في اضطراب لأن أحد الحاجات الرئيسية للإنسان الثقة واليقين بالحق، هو يريد أن يكون هناك حق في كل شيء ويتأكد أن هذه الأمور حق في كل شيء يحيط به، فالريب هو الشك مع التهمة وهو قلق يصيب

النفس واضطراب، فإذا تحقق هذا أنه قلق واضطراب علمنا أن من يشك في هذا الكتاب أنه الحق لا بد أن يعاني من القلق والاضطراب! لأن لا يوجد حق إلا الذي في هذا الكتاب.

إذًا هذا وصف الكتاب أنه لا ريب ويمكن أن نعتبر بناءً على هذا الكلام أن هذا اللفظ خبراً، ونعتبره نهي، كأنه يقال فلا تشك، يعني هذا الكتاب هو الكتاب على الحقيقة المغني لك عن كل كتاب لا تشك في ذلك، أنت منهي عن الشك، وهذا قريب جداً من حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ))**^(١) يعني يستغني به عن غيره. ^١

{ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ} يأتي السؤال: من الذي ينتفع به؟ الجواب: {فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}.

إذًا هذا الكتاب وصفه حق لكن ليس كل أحد بصير يرى الحق، ما يراه هنا إلا من وصف بالتقوى، إذن في الكتاب هدى، والهدى يقصد به الدلالة الموصلة إلى المقصود، هدىً هنا بمعنى دليل، فالقرآن دليل لمن؟ لمن كان وصفه التقوى.

نأتي الآن للمتقين: هو دليل يدلك ولا شك أنه يوصلك إلى غايتك، {لِّلْمُتَّقِينَ} اللفظ من مأخوذ من وقى، وأصله للمتوقين، معناها لمن أخذ الوقاية لمن يتوقى، فهم يتقون الله تعالى بامتنال أوامره واجتناب نواهيه، فيتوقون سخط الله.

فعلى هذا يكون مجمل المعنى أن الله يمتنّ بهذا الكتاب على أهل التقوى في أنه مرشدٌ لهم مبين لهم دالٌّ لهم على الطريق.

هذا الكتاب الكامل ليس محلاً لأن يرتاب عاقل أو منصف في أنه منزل من عند الله وأنه هداية وإرشاد للمتقين الذين يتوقون كل سوء.

فإذا نظروا له تحققوا في معنى ذلك، استفادوا من الإشارة بصيغة البعد، اعتقدوا أنه سامي المنزلة، أينما توجهت إليه وجدته سامي المنزلة، لو نظرنا إلى تراكيبه فهو معجز للبلغاء، وإذا نظرنا إلى معانيه فهو فوق مدارك الحكماء، وإذا نظرنا إلى قصصه وتاريخه فهو أصدق محدثٍ عن الماضيين وأدقّ محدثٍ لتاريخ السابقين، وإذا تأملت علاجه للنفس وجدت فيه خير ما يرشد به المعالجين، فليس فوقه في أي باب تريد ليس فوقه كتاب، فصحّ له أن يكون الكتاب، وصحّت الإشارة إليه بذلك الدالة على العلو، وصح نفي الريب كُله، يعني الألف واللام في الريب أل للاستغراق، نفس الريب على سبيل الاستغراق، لأنه مع سطوع حجته وكمال حكمته لا يرتاب ذو عقل متدبر في كونه وحيا وفي كونه مصدر هداية وإصلاح.

فإن قال قائل: لكن أهل الشرك ارتابوا ووصفوه بأنه أساطير الأولين.

نقول: العلة في المستقبلين، والآية بيّنت ذلك، الآية الكريمة الله يقول فيها: **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ}**، لكن الهدى الذي فيه، فيه هدى للمتقين، معناها نفي الريب في القرآن سيظهر لمن كان شأنه أن يتدبره ويقبل على النظر فيه بروية، ومن ارتاب

(١) رواه البخاري فيه صححه

في القرآن فسبب هذا الريب أنه لم يقبل عليه بأذنٍ واعية أو بصيرة نافذة أو قلب سليم، فهذه كلها عيوب في المستقبل، إن نفاها عن نفسه انتفى يحتاج أذن واعية يحتاج بصيرة نافذة يحتاج قلب سليم.

وهذه الصفات الثلاثة أحياناً يوجد بعضها ولا يوجد كلها، يأتي أهل الكفر ما أسلموا وماتوا غير مسلمين لكن شهدوا بالقرآن إذاً معنى ذلك **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}** لا ريب فيه أبداً، لكن لأنه فقد التقوى ما اهتدى به، ما كان قلبه سليم يريد الحق.

معنى هذا أن ذلك الكتاب مفيد لكماله، وجملة **{لَا رَيْبَ فِيهِ}** تفيد نفي الريب عنه، وكونه هدى للمتقين إشارةً إلى أن هؤلاء المنتفعون على الحقيقة فهو هدى لكل الناس لكن المنتفع به على الحقيقة هم أهل التقوى والله - عز وجل - يقول: **{قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى}** (١).

ثم نأتي إلى أحوال من أصابهم الريب، فيقال لهم: إن صدقتم فإن هذا الريب يزول وهذا الشك يضمحل لكن الأمر يحتاج إلى صدق.

إذا فهمنا هذا بيتدئ الكلام عن أوصاف المتقين الذين ينتفعون، وهذه هي الوسيلة للصدق، الوسيلة للصدق أن تبدأ تسلم، فأتى وصف المتقين ومُدحوا بجملة من المناقب، لكن مدار هذه المناقب يبدأ في كونهم يؤمنون بالغيب، وهذا المدح بكونهم يؤمنون بالغيب هو أصل المدح لهم وهو الذي يجعلهم مختلفين عن غيرهم، فأهل الإيمان **أهل التقوى قوم يتجدد إيمانهم بالغيب ويتجدد إقامتهم للصلاة والإنفاق**، ودليل ذلك أن هذه الصلوات كلها أتت بصيغة المضارع الدال على التجدد، يعني إيمانهم يزيد وإقامتهم للصلاة تزيد وإنفاقهم يزيد، يزيد بسبب ماذا؟ بسبب زيادة اهتدائهم بالقرآن، يعني **{هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}** كلما زادوا ثقة وبقينا بالقرآن زادوا إيماناً وصلاة وإنفاقاً.

فهذا أول الشأن، أن نتيقن أن الإيمان مصدره العلم بما في القرآن، العلم عن الله وعن ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وهذا هو المقصود بالغيب، الغيب هنا هو الذي لا تدركه الحواس وإنما يعلم بالخبر الغيبي بالخبر من عند الله. فلذلك والحال بهذه الصورة لا يمكنهم أن يكونوا متقين إلا إذا أقبلوا على القرآن الكريم لأن القرآن يعلمهم من الأخبار الغيبية وهم مع هذه الأخبار يفعلون يصدقون ويزيد تصديقهم فيؤمنون ويزيد تصديقهم فيتيقنون فيصبح تصديقهم على وجه الجزم ولا يحصل الإيمان بالغيب إلا عن دليل، ولذا تركبت الآية بهذه الطريقة.

{ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ}، إذا صار الثقة في الكتاب **{هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}** متعلقة بأنه لا ريب، لأن المتقين أول وصفهم أنهم يؤمنون بالغيب ولا إيمان بالغيب أي تصديق على وجه الجزم إلا بحصول اليقين.

فنحن لا نحتاج بالإيمان في الملائكة والكتب والرسول والبعث لا نحتاج في الإيمان بكل ذلك إلى دليل زائد على الأدلة التي قامت على صدق نبينا محمد-صلى الله عليه وسلم- وهو القرآن، إذا كان في قلوبنا ثقة أن هذا الكتاب لا ريب فيه دلّ على صدق النبي ودلّ على صدق كل خبر فصدقنا وآمنا، وهذا الإيمان بالغيب لا بد أن نعلم أنه دليل على اتساع العقول وسلامة القلوب، لأن الإيمان بالغيب ما يكون إلا من عقل قد سلم إدراكه وتقصعت عنه غشاوته وامتد نظره في الكائنات فأدرك هذا العقل أن لهذه الكائنات مبدعًا حكيمًا وخالقًا قديرًا جعلها تسير بنظام محكم، هذه الكواكب تظهر وتغيب وسماء مرفوعة بغير عمد وأرض راسية لا تميل ولا تطرب صنع الله الذي أتقن كل شيء، فهذا كله برهان قاطع على وجود خالق مدبر حكيم قدير مبدع لا تأخذه سنة ولا نوم، والإيمان بالغيب يعظم ويقوى كلما قويت علاقتنا بالقرآن وكلما زاد صفاء نفوسنا وكلما زاد استسلامنا.

إذن هذه أول صفة نتيجة تقوى هؤلاء، أنهم قوم آمنوا بالغيب، والأمر لا ينتهي عند هذه المناقشة لأن هذه قاعدة كل شيء سنقول بعد ذلك، كل شيء سنقله سيكون دائر حول مسألة الإيمان بالغيب، إذا صدقنا أن هذا رسول الله وأن ما أتى به من عند الله، ما بقي علينا إلا أن نزيد علمًا ونصفي قلوبنا من أجل أن تستقبل هذا العلم.

الوصف الثاني: **{وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ}** الإقامة مصدر أقام، ومعنى الإقامة: جعلها قائمة، والعرب تقول قامت السوق إذا بدؤوا البيع والشراء، يقولون قائم على الأمر الذي فيه صعوبة، بمعنى هذا الأمر ما يتأتاك من قعود لا بد من القيام، فيقولون قام الخطيب وقام العامل وقام الصانع، فالقيام له لوازم عُرفية، ولذا يقولون قامت الحرب، وضده يقولون ركدت نامت. فهؤلاء يقيمون الصلاة معناها: يقومون لها، وإذا قاموا للصلاة معناها اجتهدوا في هذا القيام، وكما اتفقنا يقوم القائم لقصده عمل صعب.

وهم يقومون ولا زالوا يقومون، والصلاة في اللغة الدعاء، من صلى يصلي إذا دعا وهي هنا استعملت كمصطلح شرعي وليس مصطلح لغوي، في اللغة معناها الدعاء لكنها انتقلت من الوضع اللغوي إلى الوضع الشرعي، في الأصل استعملت في العبادة فيها ركوع وسجود من أجل اشتغالها على الدعاء من أجل ذلك سميت صلاة.

والعرب تسمي الشيء باسم ما لا يسهه وقاربه، فالركاع والساجد يستعمل الدعاء فتسبيحه وتكبيره وتخليه وطلبه دعاء، فإذا نظرنا من جهة أخرى هو داعي بلسان حاله، إذا أقام فدام على ذلك يقيمون الصلاة أي داوموا وثبتوا على ذلك فيؤدونها في أوقاتها المقدرة لها ويعتنون بأركانها وواجباتها وسننها وآدابها وخشوعها.

وأعظم شيء في هذا الاخلاص واستحضار جلال الله في وقت القيام ووقت الركوع ووقت السجود وهذا هو الذي يترتب عليه الآثار العظيمة المنتظرة من الصلاة من تزكية النفس ومن عفافها ومن تركها لكل الشرور والآثام وهي لزوماً مبني على الإيمان بالغيب، لا يمكن إقامة الصلاة وأنت لست مؤمناً أنك تلقي الله وأنت ترعّب بين يديه وأنه سمع الله لمن حمده

قدمت الصلاة على الإنفاق تقديم مرتبة، فإن الصلاة أعلى مرتبة على الإنفاق، فهي تتكرر في اليوم ٥ مرات، وأعظم من ذلك أنها صلة بين العبد وربّه، في مقابل الإنفاق صلة بين العبد والناس.

والصلاة مع تكرارها فهي من لوازم تزكية النفس وتطهيرها، فبذلك تشترك مع الصلاة والزكاة يشتركان في التطهير ويختلفان في الوجوب و في التكرار وفي التفصيل وفي طريقة التطهير.

ولذا يتقدم الصلاة دائماً على الإنفاق، ولا شك أن هذه الصلاة في كل الأديان موجودة، الصلاة التي فيها سجود وركوع، خاصةً أن إبراهيم-عليه السلام- قد دعا **{رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ}** ^(١) واليهود كانوا بين ظهرانين المسلمين يأتون عباداتهم بهيئة مخصوصة وكانوا يسمون كنيستهم صلاة.

وقيل أن الصلاة ليست مشتقة من الدعاء إنما مشتقة من الصلاة وهو عرق غليظ في وسط الظهر، فلما كان المصلي إذا انحنى للركوع تحرك هذا العرق اشتقت الصلاة منه، وهذا من الاشتقاقات من الجوامد، فيقولون استنوق الجمل وتنمر فلان، وكثير من أهل اللغة يؤيدون هذا المعنى.

على كل حال إن كان مشتقاً من الدعاء أو مشتق من هذا المعنى فقد نُقلت الصلاة في لسان الشرع إلى الخضوع بهيئة مخصوصة ودعاء مخصوص وقراءة وعدد ولذلك يكون أقرب أن يكون أصلها الدعاء والخضوع لأنه أقرب للمعنى الشرعي.

نقول باختصار: ومما رزقناهم ينفقون: صفة الثالثة في وصف المتقين وهو يحقق معنى صدق الإيمان من بذل الشيء العزيز على النفس الذي ركب في النفس الشح به.

لما يؤمن يعالج هذا الأمر لأن الإيمان مقره القلب ويترجمه العمل، والعمل يأتي أقوى إن كان وراءه مدافعة، في الصلاة ندافع الكسل وفي الإنفاق ندافع البخل، فالسخاء يبذل المال للفقراء مبني على الإيمان، والآية ذكرت أن هذا الرزق الذي تناله أنت هنا إنما هو من رزق الله **{وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}**.

فالعطية عطية الله وأنت قد ابتليت بها واختبرت هل تؤمن بأن الله يعوضك عنها فبعد ما يديقك إياها في الدنيا وتكون متمكناً منها تخرجها من عندك متيقناً أنها ملك الله، هذا هو الاختبار الصعب، أنك تتأكد أنها ملك الله، فتنفقه كما أمر الله.

ولنا مع هذا المعنى وقفة إن شاء الله في لقاءنا غدًا نجمل الكلام أن هذا الكتاب العظيم هو الغنوة عن كل كتاب ومن أقبل عليه وجد فيه الحق وعلم أن لا ريب فيه ويتنفع به من كان ذا ذهنٍ قوي وقلب صافي يدخل إلى قلبه الحق فيصدق ويؤمن ويعمل امتثالاً لهذا الإيمان فإن أول وأهم صفات المنتفعين المتقين إنما هو الإيمان بالغيب.

نسأل الله بجمه وكرمه أن يجعلنا من المؤمنين المتقين المقيمين الصلاة المنفقين. اللهم آمين.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

